2 العلاقات المصرية الإسرائيلية في ثلاثين عامًا

من أعقد موضوعات العلاقات الدولية دراسة العلاقات بين الدول المتحاربة عقب سلسلة من الحروب، أما فى حالة إسرائيل فالأمر مختلف تماماً. فإذا كانت العلاقات الأمريكية أو البريطانية أو الفرنسية مع ألمانيا عقب هزيمة النازى فى الحرب العالمية الثانية أمراً معقداً لاعتبارات نفسية لاتزال عالقة فى النفوس الشعبية ومخزونة فى نفوس السياسيين فإن تلك علاقات متغيرة بين دول قائمة، ولكن إسرائيل رأس المشروع الاستعمارى الاستيطانى دخل المنطقة بمؤامرة مدعوما من أركان النظام الدولى فى كل مرحلة، ثم هزم المنطقة العربية لأنه مشروع عسكرى تخريبى فى بيئة اجتماعية مسالمة، ولذلك فإن سلامه وعلاقاته مع رأس المنطقة، وهى مصرهو قمة ما يتمناه لأن ذلك يعنى بالنسبة له فتح الطريق إلى الجسد العربى وأوله الجسد المصرى. ثم أن ذلك يعطيه رخصة قانونية بالولوج إلى كل المواقع المصرية وإجراء عملية جراحية فيها حتى يضمن أنه لاعلاقة بين الماضى والحاضر. وهذه من خصائص المشروع، أنه يستند إلى ماضى موهوم ويقطع الصلة بين العرب وكل ماضى حقيقى لاوجود فيه لهذا المرض اللعين. وقد اعتبر المشروع أن معاهدة السلام مع مصر هى فصل للرأس عن الجسد. ثم راح المشروع يعبث بالرأس المقطوعة أملاً فى تشويه العقل، وهو ما حذر منه فى وقت مبكر عام ١٩٨١ أستاذنا المرحوم حامد ربيع عندما كتب ثمانى حلقات فى مجلة الأهرام الاقتصادية حول

السيطرة على العقل المصرى. وأظن أن المشروع تمكن من النيل من أطراف من الجسد والعقل معاً داخل النخبة المستفيدة التى فارق الوطن قطاعات من جسدها لصالح المشروع.

هذه الدراسة هى الأولى التى نأمل أن نتابعها لأن ازدهار هذه العلاقات يعنى مباشرة ازدهار المشروع، وهو نقيض القاعدة العامة فى العلاقات الدولية العادية. فهل تستطيع مصر احتواء المشروع سلماً بعد أن عجزت عن احتوائه عسكرياً؟ وهل تستطيع مصر أن توفق بين انتمائها العربى والتزاماتها للمشروع؟ وهل تضبط مصر الرسمية إيقاع الاندفاع الصهيونى نحو التطبيع فى مرحلة لاحقة أم يغلب التطبيع فى العالم العربى ويتسع الرتق على الراتق فتقود الدولة بنفسها هذا التطبيع . إن مأساة العلاقات مع إسرائيل ترجع إلى إسرائيل نفسها ولو كانت دولة عادية لما كان فى الأمر مشكلة، فإما أن تتخلى إسرائيل عن المشروع الصهيونى وهى قمته وصنيعته وهذا مستحيل أو تظل جسداً غريباً يسعى إلى هزيمة الجسد العربى، والجسد العربى لايملك إلا تجديد طاقة المقاومة والمواجهة حتى يقضى على هذا السرطان.

وقد بدأنا الكتاب ببيان الطبيعة الفريدة للعلاقات بين مصر وإسرائيل وتطورها، وتباين الرؤية المتبادلة فى الجانبين لهذه العلاقات وأسبابها، ثم حجم العلاقات من الناحية الكمية، وأخيراً ظاهرة انكسار مصر النفسى والسياسى أمام إسرائيل فى السنوات الأخيرة وأسبابها. ولاشك أن واشنطن هى الخلفية الدائمة لهذه العلاقات، ولكن الأخطر هو فقدان مصر لتوازنها الإقليمى لسبب الضغوط الأمريكية والإسرائيلية وتدهور أداء النظام فى الداخل وانحراف البوصلة واتجاه مصر إلى العمل وفق البوصلة الأمريكية الإسرائيلية فى بعض الأحيان، كما أن هذا المناخ دفع مصر إلى معادلة مقعدة أصبحت فيها علاقاتها مع إسرائيل هى أساس

علاقاتها مع الولايات المتحدة، وهذا أكبر خسائر مصر الدبلوماسية خلال العقود الثلاثة الأخيرة. وأخيرا عالجنا علاقة معاهدة السلام بكل ما أصاب مصر بسبب علاقاتها الإسرائيلية وانتهينا إلى أن المعاهدة هى السبب الأساسى، فإن تآكل إرادة مصر السياسية دفعها إلى تفسير المعاهدة لصالح إسرائيل، خاصة أن النظام فى مصر يشتبك مع بعض القضايا ضد المجتمع المدنى المصرى.

تلك صفحات مؤلمة من تاريخ مصر والمنطقة، ولذلك لاقيامة لعالم عربى يواجه المشروع إلا بقيامة مصر ونأمل ألا تتأخر قيامتها وأختم بقول شوقى:

فإما حياة تقهر الموت فى البلى ... و تنبت فى تلك الرموس رفاتى

وإما ممات لاقيامة بعده ... ممات لعمرى لم يقس بممات